الأسطول الإسلامي

نشأته وتطوره

د. محمد ضيف الله بطاينة

تعريف وبداية:

الأسطول (stolos) لفظ يوناني استعمله العرب في التعبير عن المراكب البحرية الحربية وغير الحربية. قال البحتري يمدح والي البحر أحمد بن الدينار بن عبد الله وقد غزا الروم بحراً:

غدوت على الميمون صحباً وانما غدا المركب الميمون تحت المظفر
يسوق أسطولاً كان سفينه سحائب صيف من جهام وممطر(١)

وعندما توقف البر الشامي في بعض امتداداته عند حافة مياه البحر المتوسط، وكانت سفن بيزنطة تنطلق من جزره تهاجم جند المسلمين في الساحل وتهددهم في الداخل، صار لا بد من أن تعضد القوة البريّة، أي الجيش، بقوة بحرية تساهم في خدمة سياسة الدولة الداخلية والخارجية، ولذلك كتب معاوية بن أبي سفيان والي الشام من بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب يصف له حال السواحل، ويستأذنه بالغزو في البحر، وقيل إن معاوية لجَ على عمر في غزو

البحر وقُرْب الروم من حمص وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم(٢).

فلما فعل معاوية ذلك كتب عمر إلى عمرو بن العاص: «ان صف لي البحر» فكتب إليه عمرو: «يا أمير المؤمنين، إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرّق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق».

فلما جاء عمر كتاب عمرو، كتب عمر إلى معاوية: لا، والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً(٣).

كان عمر بن الخطاب لا يرى المسلمين في هذه المرحلة المبكرة مهرة في ثقافة البحر وركوبه، ولا يستطيعون بخبرتهم البحرية القليلة إن يجاروا البيزنطيين الذين كانوا تمرسوا في شئون البحر، ومرنوا على ركوبه، وأحكموا الدربة بثقافته(٤) لذلك منع ركوب البحر، وحذر منه، وعد حمل الجند فيه تغريراً بهم، وقيل فعل ذلك اقتداء بالنبي ﷺ وبأبي بكر(٥)، ولعلّ ما أصاب العلاء بن الحضرمي، وعلقمة بن مجزز المدلجي من غرق سفنهم في البحر ما قوّى عزم عمر على التمسك برأيه(٦)، ورأى في الامتداد البري للجوانب الأخرى من الشام ما يغني عن ركوب البحر لأغراض الجهاد ونشر الإسلام.

استعاض عمر بن الخطاب عن ركوب البحر باتخاذ سياسة بحرية دفاعية كانت الأساس لما عرف بـ «نظام الرباط»، فقد أرسل إلى معاوية يأمره بمرمة الحصون الساحلية، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها، وبذل القطائع للمرابطة فيها(٧)، وبعث إلى عمرو بن العاص أن لا يغفل أمر الاسكندرية، وأن يكثف رابطتها، ولا يأمن البيزنطيين عليها، وكان يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية(٨).

فلما استخلف عثمان بن عفان تابع سياسة عمر بن الخطاب البحرية، وأرسل إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام يأمره بتحصين السواحل، وشحنها بالمقاتلة واقطاع

من ينزله إياها القطائع(٩)، وكتب إلى عبد الله بن سعد وإليه على مصر إن قد علمت كيف كان همّ أمير المؤمنين بالإسكندرية، فالزم الإسكندرية رابطتها ثم أجر عليها أرزاقهم، وأعقب بينهم في كل ستة أشهر(١٠)، وقد نجحت هذه السياسة البحرية الدفاعية في صد الاعتداءات البيزنطية البحرية التي تعرضت لها سواحل الشام وسواحل مصر عام ٢٥ هـ(١١).

وكان من المدن الساحلية التي حظيت بالتحصينات وإقامة القلاع وإنزال المرابطة فيها في كل من الشام ومصر، مدن إنطاكية، وجبيل، وعرقة، وطرابلس، وصيدا، وصور، وعكا، وعسقلان، ودمياط وتنيس، والبرلس، ورشيد، والاسكندرية(١٢).

وفي فترة تالية، أصبح الرباط المكان الذي يجذب الاتقياء الراغبين في الجهاد إليه، وكان يتألف من حجرات للجند، ومساكن لهم، ومخازن للأسلحة والمؤن، كما كان يضم برجاً للمراقبة كان يستخدم من قبل الجند لمراقبة الخطوط البحرية، ورصد حركات سفن الأعداء، وقد استطاع المسلمون عن طريق نظام الأبراج أو المناظر أن يحكموا مراقبة الشواطىء ويتهيئوا للهجوم قبل وقوعه، واستعمل المسلمون إلى جانب المناظر والأبراج، المواقيد لنقل أخبار تحركات العدو في البحر، وكانت المواقيد تقام في المناطق المرتفعة، وتنتشر من حد الساحل إلى الداخل بانتظام، فإذا شعر حراس الأبراج الساحلية بقدوم سفن الأعداء ـ وكانت مباغتة سفن الأعداء للسواحل تحدث في العادة ليلاً ـ قاموا بإيقاد النار في مواقيد الساحل فيراها من بالمواقيد المجاورة لها، فإذا رآها هؤلاء قاموا بدورهم ـ يوقدون النار في مواقيدهم ليراها من يليهم من أصحاب المواقيد الداخلية المجاورة، وهكذا حتى تعم الأخبار جميع البلاد، ويخف المدد نحو الساحل على عجل ويجتمع الجند لملاقاة العدو(١٣).

إلا أن هذه السياسة الدفاعية لم تكن تفي تماماً بأغراض الدولة وسياستها، ولذلك نجد عثمان بن عفان يعزم على ركوب البحر، ويأذن لمعاوية الذي لم يزل منذ عهد عمر يلحّ على ذلك، بالغزو في البحر، ولكن عثمان اشترط، من باب الحيطة والحذر، في هذه الفترة على معاوية أن لا يجبر الناس على ركوب البحر ويترك الأمر لاختيارهم، وأن يحمل ويعين من يختار الغزو في البحر طائعاً، وأن يعدّ جيوشاً تكون في السواحل

تحرسها في حال غياب الجند في البحر، فتهدأ نفوس الناس ويرغبون في سكنى السواحل فتكبر عمارتها، ويشتد بها أزر سلاح البحرية ففعل معاوية(١٤).

صار البحر - أي البحر المتوسط - منذ عهد عثمان بن عفان مطية للمسلمين، يجوبون عرضه، ويبحرون فيه من أدناه إلى أقصاه، على أن الدولة لم تهمل في الوقت نفسه نظام الرباط وتحصين السواحل، بل كان اتخاذ الأساطيل لركوب البحر موضع اهتمام الدولة، ولكن الاهتمام بنظام الرباط وتحصين السواحل وبناء الأساطيل كان متفاوتاً فيها بين عهد وعهد وبين دولة ودولة وبين بلاد وبلاد من ديار المسلمين.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: كيف وفرت الدولة - في هذه الفترة المبكرة من ركوب البحر - المراكب اللازمة في غزواتها التي قامت بها نحو قبرص ورودس وكريت وغيرها من المواقع البحرية الأخرى حيث تجاوز عدد المراكب المئات في بعضها(١٥).

ويبدو أن الدولة في هذه الفترة كانت قد استفادت من خبرات سكان بلاد الشام وبلاد مصر القدامى، واستعانت بما عندهم من المراكب في الغزوات التي قامت بها في البحر(١٦)، إلا أن الدولة لم تركن إلى ذلك طويلاً، بل باشرت إقامة دور الصناعة البحرية ووظفت فيها خبرات الذين صاروا من رعاياها من الأمم البحرية السابقة، وبخصوص ذلك يقول ابن خلدون، فلما استقر الملك للعرب، وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم، وتقرّب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشواني، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من الأعداء(١٧).

وشجع ولاة الأمر سكنى السواحل، ونقلوا إليها بعض الأقوام من الداخل، وعلى سبيل المثال نقل معاوية قوماً من فرس بعلبك وحمص وإنطاكية إلى سواحل الأردن في صور وعكا وغيرها سنة اثنتين وأربعين للهجرة، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى إنطاكية في هذه السنة أو قبلها، وقد تشجع الناس بالإجراءات التي اتخذها معاوية فنزحوا من البلدان المختلفة ونزلوا السواحل مع من كان بها من جند العرب وغيرهم من السكان السابقين(١٨).

دور صناعة الأسطول:

ويبدو أن أول دار للصناعة البحرية كانت أنشئت في جزيرة الروضة بمصر حيث كانت تصنع السفن التي تستطيع الاشتراك في المعارك البحرية إضافة إلى السفن النهرية(١٩)، ثم أمر معاوية بن أبي سفيان على أثر هجوم بيزنطي بحري على سواحل الشام عام ٤٩ هـ بجمع الصناع النجارين، فجمعوا ورتبهم في السواحل، وأنشأ دار صناعة بحرية في الأردن بعكا، نقلها هشام بن عبد الملك فيما بعد إلى مدينة صور(٢٠)، ولما فتحت بلاد أفريقية، أوعز عبد الملك بن مروان إلى واليه على أفريقية حسان بن النعمان عام ٨٩ هـ أن يتخذ داراً للصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، وتعضيداً للجيش البري في أفريقية بأسطول بحري ينطلق من القواعد الأفريقية ويضرب البيزنطيين في قوصرة وصقلية وغيرها من المراكز البحرية التي كانت تهدد السواحل الافريقية(٢١)، وشجع الوليد بن عبد الملك من بعده الصناعة البحرية، وازدهرت في عهده صناعة السفن في جزيرة الروضة والقلزم والاسكندرية في مصر(٢٢).

وعندما آلت الخلافة إلى بني العباس واتخذوا العراق مركزاً للدولة خلافاً للوضع الذي كان في عهد بني أمية، بدا أن اهتمام العباسيين بأمور البحرية كان أقل من اهتمام الأمويين سواء في البحر المتوسط أم في البحار الأخرى كالمحيط الهندي، إلا أن حكام البلاد التي كانت تطل على البحر المتوسط سواء من كان منهم نائباً عن بني العباس أم من كان منهم أميراً أو رئيساً مستقلاً عنهم، قاموا بالاهتمام بأمور البحرية وحماية السواحل الإسلامية من الاعتداءات البحرية التي كانت تقع عليها.

فقد قامت الإمارة الأموية في الأندلس على أثر غزو النورمان للسواحل الأندلسية عام ٢٢٩ هـ في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بتحصين السواحل وإقامة المراقب والمحارس فيها، وأمر عبد الرحمن الأوسط بإنشاء دار للصناعة البحريّة في أشبيلية

عام ٢٣٠ هـ، وبناء دار لصناعة الأسلحة اللازمة للسفن في قرمونة، واستعان بالطوائف البحرية التي كانت تشتغل بالغزو البحري فيما مضى لحسابها الخاص، في إدارة الأسطول الأندلسي وتسييره، وأقيمت دار لصناعة الأسلحة في جزيرة «شلطيش» كانت تزود الأسطول بكل ما يحتاجه من الآلات والمعدات(٢٣)، وتابع محمد بن عبد الرحمن الأوسط جهود أبيه في مجال الاهتمام بالأسطول، وبلغ مجموع ما أنشأه عام ٢٤٥ هـ من المراكب البحرية سبعمائة من النوع الذي يطلق على القطعة البحرية منها اسم «غراب»، وكانت عناية عبد الرحمن الناصر بالأسطول كبيرة جداً حتى عد المؤسس الحقيقي للأسطول الأندلسي، فأنشأ دوراً كثيرة للصناعة البحرية كانت تنتشر في مواقع مختلفة من السواحل الأندلسية، ومنها ما كان مختصاً بصناعة السفن الصغيرة، ومنها ما كان مختصاً بصناعة السفن الكبيرة، ومنها ما كان مختصاً بصناعة الأسلحة الحربية، وتركزت الأساطيل الأندلسية الهامة في قاعدتين هما: مرية بجانة التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على البحر المتوسط، وأشبيلية التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على المحيط الأطلسي(٢٤).

واهتم الفاطميون بالأسطول كذلك، وأنشأ عبيد الله المهدي داراً للصناعة البحرية في عاصمة ملك «المهدية» في تونس، ولما لم تعد دار الصناعة في المهدية تفي بحاجات الأسطول في فترة تالية، قام المعز لدين الله الفاطمي ببناء دار للصناعة في مدينة سوسه(٢٥)، وعلى أثر نزول البيزنطيين في دمياط وتنيس من مدن مصر عام ٢٣٨ هـ وقتلهم الرجال والنساء والأطفال، أمر الخليفة المتوكل على الله بالاهتمام بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر، وانشئت القطع البحرية المعروفة بـ «الشواني» وأمر عام ٢٤٧ هـ بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة(٢٦).

وقام أحمد بن طولون نائب العباسيين في مصر ثم في الشام، بتقوية القواعد والحصون الساحلية والاهتمام بدور الصناعة فيها، فاعتنى بدار الصناعة في الجزيرة، جزيرة مصر التي تعرف بالروضة، ولم تزل دار الصناعة قائمة بها حتى أيام محمد بن طغج الأخشيدي الذي أمر بنقلها إلى ساحل فسطاط مصر عام ٣٢٥هـ(٢٧).

إلا أن النشاط البحري في هذه البلاد تزايد منذ قدوم الفاطميين إليها حيث أمر

المعز لدين الله الفاطمي، وقيل ابنه العزيز بالله بإقامة دار للصناعة البحرية في «المقس» وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر كبراً ووثاقة، كما أنشئت المراكب البحرية بمدينة القاهرة والإسكندرية ودمياط وصارت تنقل إلى مدن الشام الساحلية مثل صور وعكا وعسقلان(٢٨).

وعندما فتحت جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت وغيرها أقيمت دور الصناعة فيها، وصارت الأساطيل تنطلق من القواعد البحرية فيها صوب إيطاليا وفرنسا وسواحل البحر التيراني وغيرها، وقد أدى الاهتمام بدور الصناعة البحرية والعناية بالأساطيل إلى علو يد المسلمين على غيرهم من إسم البحر المتوسط وسيطرتهم على طرقه، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «... وكان المسلمون... قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسه وسردانيا وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص»(٢٩).

ولما دبّ الضعف والوهن في الممالك الإسلامية المتوسطية مثل الفاطميين في مصر والشام، وبني زيري في أفريقية، والأمويين في الأندلس، وضعفت البحرية الإسلامية، أخذت سيطرتهم في البحر المتوسط تتراجع وتنحسر عن جزره تباعاً(٣٠)، ولم تستطع الجهود التي بذلها المرابطون والموحدون والمرينيون وغيرهم في إنشاء الأساطيل، أن تغير الوضع البحري لصالح المسلمين تماماً، ثم أصابها الضعف أيضاً، وانتقلت ضربات الأساطيل المعادية إلى السواحل الإسلامية في كل من الإندلس والمغرب ومصر والشام، ونجح هؤلاء في احتلال أجزاء من هذه البلاد(٣١).

مواد صناعة الأسطول:

كان مما ساعد على قيام الصناعة البحرية، وإنشاء الأساطيل الحربية أن المواد اللازمة لهذه الصناعة كانت متوفرة في أرض الدولة الإسلامية، فأخشاب الصنوبر التي كانت تستخدم في صناعة ألواح السفن والصواري والمجاذيف كانت أشجارها

تكثر في طرطوشة وقادس ويابسة وشلطيش وغيرها من مدن الأندلس، وفي جغلوذ من جزيرة صقلية وفي جبل درن ومدينة تكور وأودية بجاية من بلاد المغرب، وكان بالمغرب إلى جانب الصنوبر أشجار الأرز والبلوط، وكان في الجبال القريبة من فاس خشب جيد قد يعمر الف سنة إذا لم ينله الماء، وكان بمالطة وقوصرة أشجار صنوبرية جيدة ايضاً، واشتهر لبنان من بلاد الشام بأخشابها، واشتهرت مصر ببعض أنواع الأخشاب مثل خشب النبج (اللبخ) وخشب السنط في انسنا والبهنسا من مدن الوجه القبلي، ولكنها كانت تأخذ ما يلزمها من الأخشاب في الغالب من بلاد الشام ثم صارت تأخذه في عهد الفاطميين من إيطاليا(٣٢). وكان الحديد والنحاس يوجد بوفرة في المرية وطليطلة وغرناطة من مدن الأندلس، وفي بجاية وبونه والاربس من بلاد المغرب، وفي مسينى وبلرم من مدن صقلية، وكان الزفت والقطران يوجد في لياج بصقلية، وفي كورة جيان بالأندلس، وفي جزيرة قوصرة، وكانت الحبال تصنع من نبات يسمى البربير يكثر في بلرم بصقلية، وتصنع كذلك من نبات يقال له الدقس يكثر في مصر(٣٣).

كانت الأخشاب تستخدم لصناعة ألواح السفن والصواري والمجاذيف وصناعة القسي والسلاليم وبعض الرماح والتروس، وكان الحديد يستعمل لعمل المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف أو الكلاليب والعرادات والفؤوس والدبابيس وغيرها من الآلات والأسلحة، واستخدم النحاس لصناعة السلاسل، وكانت الألياف النباتية تستعمل لعمل حبل المراسي، واستخدم القطران والزفت لقلفطة السفن حتى لا تؤثر المياه في ألواحها المغمورة في البحر، واستعمل القطران والكبريت لصناعة النفط البحري الذي لا ينطفىء في الماء، واستعمل القطران والكتان لصناعة النار المحرقة(٣٤).

أنواع السفن:

وقد انتجت دور الصناعة من قطع الأسطول ومراكب البحر أنواعاً كثيرة نذكر منها البارجة والبطسة وجفن (ج: أجفان) والحراقة (ج: حراقات أو حراريق) والحمالة والخلية والزبزاب والشلندي (ج: شلنديات) والشينى (ج: الشواني) وبركة وبرعاني

والبوص والجلبة والجاسوس والمزراب والسميرية والطيار أو الطيارة والعشارى والغراب والشذا وغيرها كثير، وفيما يلي تعريف موجز بأشهرها:

البارجة: تحمل خمسة وأربعين رجلاً منهم ثلاثة نفاطون وبحار وخبّاز إضافة إلى المجذفين والمقاتلة.

البطسة: سفينة بحرية كبيرة يصل شراعها إلى أربعين شراعاً وتحمل المجانيق والمقاتلة والأسلحة والذخيرة والمؤن وتتألف من طبقات تتسع إلى سبعمائة مقاتل.

جفن: سفينة حربية كبيرة بطيئة الحركة لكبر حجمها.

الحراقة: سفينة حربية تقوم برمي النار على الأعداء في البحر.

الحمّالة: من السفن المخصصة لنقل المؤن والذخيرة لرجال الأسطول.

الخليّة: سفينة شراعية كبيرة، ويتبعها زورق يقال له الركوه، وسميت بذلك تشبيهاً بالخليّة من الإبل التي ترأم على ولد واحد.

الزبزاب: سفينة كبيرة، قليلة العمق، سريعة الحركة.

الشلندي: مركب حربي كبير مسطح، كان مخصصاً لنقل المقاتلة والأسلحة.

الشيني: من أهم قطع الأسطول وأكبر سفينة وأكثرها استعمالاً تحمل المقاتلة للجهاد وكان يقام فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم.

بركة: من السفن الخفيفة الحركة.

برعاني: نوع من السفن كان لبحارته براعة في استعمال المجاذيف في الحالات الجوية القاسية ومن هنا أخذ المركب اسمه.

البوصي: سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم.

الجلبة: نوع من السفن الصغيرة الحجم المخيطة التي كانت تستعمل في البحر الأحمر.

الجاسوس: سفينة صغيرة، خفيفة الحركة، تسير في الليل بغير ضوء أو شعلة لكي تستطلع أخبار العدو.

المزارب: سفينة طويلة متينة البنيان وتستعمل للاستكشاف في أثناء الحروب.

السميرية: نوع من السفن البحرية والنهرية وتحمل مقاتلين اثنين ويحمل ملاحوها السيوف والرماح والتروس.

الطيّار: ضرب من السفن النهريّة الخفيفة السريعة.

العشاري: من المراكب التي تسير بعشرين مجدافاً وتستخدم لنقل المقاتلة.

أسلحة الأسطول:

وإذا استثنينا بعض أنواع محدودة من الأسلحة، نجد الأسطول يستخدم في حروبه في البحر الأسلحة التي كان يستخدمها الجيش في حروبه في البر، وقد استفاد كلاهما من تقدم العلوم في تطوير فعاليتهما وبخاصة تقدم علوم الفلك بالنسبة للأسطول والملاحة البحرية، وقد استخدم الأسطول في حروبه القسي والرماح والسيوف والتروس والكلابيب، واللجام، والباسليقات والتوابيت والمجانيق، والنار البحرية (النار الأغريقية)، وجرار النورة، واستخدم المدافع (المكاحل) في مرحلة تالية، وفيما يلي تعريف ببعضها:

الكلاليب: تستخدم عندما يدنو الأسطول من سفن الأعداء، فتلقى على سفن الأعداء وتجذب ويرمى عليها الألواح التي يمر الجند عليها إلى سفن الأعداء لقتال من فيها.

اللجام: حديدة طويلة محددة الراس جداً، تكون مثبتة في مقدمة السفينة كسنان الرمح وتستخدم لإحداث خرق في سفن الأعداء ليدخل الماء إليها فتغرق.

الباسليقات: سلاسل في رؤوسها رمانة حديد.

التوابيت: توجد في صواري السفن الكبيرة، وهي صناديق مفتوحة من أعلاها، ويصعد إليها الرجال قبل الاقتراب من سفن العدو، ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق، ثم ترمى سفن الأعداء بتلك الحجارة وقد يرمى جرار النورة.

جرار النورة: مسحوق ناعم من مزج الكلس والزرنيخ يرمى به الأعداء لإيذاء عيونهم.

النار البحرية: قيل أنها من اختراع مهندس من مدينة هليوبوليس (عين شمس) اسمه قلينيكوس، وهي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يصبونه في أسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها في مقدم المركب، ومن هذه الإسطوانة يقذف السائل مشتعلاً أو يطلقونه بشكل كرات مستقلة أو قطع من الكتّان المعجون بالنفط فيقع على السفن فيحرقها، وكانت تشتعل هذه النار في الماء ولذا سميت بالنار البحرية. ومما جاء في وصفها ما يلي: أنها تتألف من الكبريت والصمغ الفارسي والقار الخام والنترات ويمزج ويخلط معاً ويغمس فيه نسيج الكتان، فإذا أشعلت فيه النار انتشر اللهب في الحال وتطفأ بالرمل والخل. وجاء وصف طريقة استعمالها في بعض ما كتبه الفرنجة في الحروب المعروفة بالحروب الصليبية قيل: أنها مزيج من النفط والزيت والكبريت المجمد بنوع من الصمغ القابل للاشتعال، وكان هذا المزيج الناري يعبأ في أنابيب من النحاس لها فوهة توقد منها، وفي مؤخرها قوس تنطلق فتدفعها إلى الأمام وكانت هذه الأنابيب توضع بكميات كبيرة في أسطوانة مستديرة، توضع في مدافع المنجنيق، ثم تقذف على العدو فتصليه ناراً حامية.

المدفع: كان العرب يصنعونه من الخشب ويطلونه بالطلاء للمتانة، ويذكر القلقشندي، أن المدافع والمكاحل التي ترمى عنها بالنفط حالها مختلف، فبعضها يرمى عنه بأسهم

عظام تكاد تحرق الحجر، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد ذي زنة متفاوتة، ويذكر أن المدافع في الدولة الأشرفية بمصر صارت تصنع من نحاس ورصاص وتصل قذائفها إلى مسافة كبيرة(٣٦).

رجال الأسطول:

لقد أوكلت الدولة أمور الأسطول إلى «رئيس الأسطول» أو «أمير البحر»، وانيطت به مهمة الإشراف على الأسطول، وجميع ما يتعلق به من بناء السفن، وتفقد قواعده، ودور صناعته وتصفح أحواله، وتعهد أعداده، وانتقاء المهرة من أهل الصناعات والمهن له، واختيار رجاله، ومتابعة تدريبه، وحراسته من غفلة ينفذ العدو منها إليه، وأن يكون لسائر من معه في الخير اماما(٣٧)، وعلى سبيل المثال، جعل معاوية بن أبي سفيان لما أذن له بالغزو في البحر، جعل على البحر عبد الله بن قيس الفزاري أميراً، فغزا عبد الله خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب(٣٨).

ويبدو أن غزاة البحر كانوا أول الأمر من الجند النظامية والمتطوعة وممن كان يشترك في الغزو لقاء اجر معلوم، وقامت الدولة كما مر، ببذل الاقطاعات الوفيرة للناس تشجيعاً لسكنى الأماكن الساحلية المخوفة وتدعيماً للبحرية، ومما يلاحظ أن الاهتمام بالأسطول كان يتزايد عندما كانت البلاد تتعرض للغزوات البحرية، على أن الاهتمام بركوب البحر لم يقتصر على جانب الدولة فحسب، بل نجد بعض الجماعات البحرية التى كانت تنطلق في الغالب من بلاد الأندلس والمغرب وتركب البحر نحو جزره وسواحل أوربا الجنوبية، وحققت انتصارات باهرة في هذا الميدان.

الاهتمام بالأسطول وغزواته:

ويتحدث المقريزي(٣٩) عن مدى اهتمام الدولة بالأسطول والأموال التي كانت تنفق عليه، فيذكر أنه لما غزا البيزنطيون مصر عام ٢٣٨هـ، أمر الخليفة العباسي المتوكل على الله بالاهتمام بالأسطول وبناء المراكب البحرية، وجعل الأرزاق لغزاة البحر كما هي

لغزاة البر، وانتداب أمراء الأسطول الرماة للأسطول، واجتهد الناس في تعليم أولادهم الرماية، وجميع أنواع المحاربة البحرية، وانتخب للأسطول القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور البحر، وكان للناس رغبة في الجهاد، وعندهم حرمة ومكانة لرجال الأسطول، وزاد الاهتمام بأمر الأسطول في زمان الفاطميين وأفردوا له ديواناً كان يطلق عليه ديوان «الجهاد» وديوان «العمائر» وبلغ عدد رجال الأسطول في بعض الأوقات في مصر أكثر من خمسة آلاف، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد، ويعين منهم رئيس للأسطول، ويصل راتب الواحد منهم عشرين ديناراً، ثم إلى خمسة عشر ديناراً، ثم إلى عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دينارين وهي أقلها، ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة.

وعند القيام بالحملة البحرية، كان يجري إحصاء للمراكب وللغزاة في الحملة، وترتب للغزاة في مدة سفرهم المشاهرة والجراية(٤٠) التي كانوا يقبضونها بحضرة الخليفة والوزير، وكان مقدار ما يدفع للواحد من الغزاة في زمن المعز لدين الله الفاطمي خمسة دنانير، وقد يصل مجموع ما ينفق على الحملة أكثر من مائة ألف دينار، وكان إذا تكاملت النفقة، وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر، ركب الخليفة والوزير إلى النيل لوداع الأسطول، وكان يجري في العادة، أن يقوم الأسطول قبل رحيله ببعض الاستعراضات في الماء للتدليل على مهارته البحرية ويتقدم رئيس الأسطول إلى بين يدي الخليفة للوداع ويصرف لرئيس الأسطول قبل مغادرته عشرين ديناراً(٤١).

استمر الاهتمام بالأسطول في عهد الأيوبيين، وأضيفت الزكاة إلى نظر ديوان الأسطول وصارت تدخل في عداد النفقات الموقوفة برسم الأسطول، وبلغ مقدار الزكاة في إحدى سنوات حكم صلاح الدين الأيوبي خمسين ألف دينار(٤٢).

ومما يجدر ذكره أن غزوات الأسطول في البحر كانت متأثرة في الغالب بأحوال فصول السنة فمنها غزوة شتوية، أو ربيعية، أو صيفية وكانت الغزوة الشتوية قصيرة لا تزيد عن عشرين ليلة ولا تحدث إلا عند الضرورة، وتبدأ في أواخر شباط، وأما الغزوة الربيعية فكانت تبدأ في العاشر من أيار وتستمر لمدة شهر تقريباً، وأما الغزوة الصيفية فكانت تبدأ في العاشر من تموز، وتستمر مدة شهرين، وقد يقع الغزو في الصيف أكثر من مرة(٤٣).

الحواشي والتعليقات:

١ ـ سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

٢ ـ تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٨، ٢٥٩.
ابن الأثير / الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٨.

٣ ـ البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٢.
ابن خلدون / المقدمة ص ١٨٩.
المقريزي / الخطط ج ٣ ص ٤.

٤ ـ ابن خلدون / المقدمة ص ١٨٩.

٥ ـ أبو جعفر الطبري / تاريخ الطبري ج ٤ ص ٨٠.
المقريزي / الخطط ج ٣ ص ٣.

٦ ـ أبو جعفر الطبري / تاريخ الطبري ج ٤ ص ١١٢.
ابن الأثير / الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٨.

٧ ـ البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٢، ١٧١.

٨ ـ كان عمرو بن العاص قد جعل نصف الجند معه في الفسطاط، وقسم النصف الثاني قسمين كان يرابط كل قسم ستة أشهر في رباط الاسكندرية.
أنظر: ابن عبد الحكم / فتوح مصر ص ١٩٢.

٩ ـ البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٢.

١٠ ـ ابن عبد الحكم / فتوح مصر ص ١٩٢.

١١ ـ البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٠.

١٢ ـ أنظر: قدامة بن جعفر / الخراج وصناعة الكتابة ص ١٨٨.
سالم والعبادي / تاريخ البحرية الإسلامية ص ١٦ ـ ١٧.

١٣ ـ أنظر: ابراهيم العدوى / الأساطيل العربية ص ١٢ ـ ١٣،
عبد العزيز سالم وأحمد العبادي / تاريخ البحرية الإسلامية ص ١٦،
حسين مؤنس / أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر المتوسط / ص ٨٨ ـ ٨٩.
مجلة الجمعية المصريّة للدراسات التاريخية، المجلد الرابع، العدد الأول ١٩٥١.

١٤ ـ أبو جعفر الطبري / تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١،
البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٢.

١٥ ـ ذكر ابن عبد الحكم أن عدد المراكب التي كانت مع عبد الله بن سعد في غزوة ذي الصواري مائتا مركب ونيف.
ابن الحكم / فتوح مصر ص ١٩٠.
المقريزي / الخطط ج ٣ ص ٥.

١٦ ـ أنظر: إبراهيم العدوى / الأساطيل العربية ص ١٨.

١٧ ـ ابن خلدون / المقدمة ص ١٨٩.

١٨ ـ البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

١٩ ـ ذكر البلاذري أن صناعة السفن كانت بمصر فقط.

البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٤٠.

وانظر: حسين مؤنس / أثر ظهور الإسلام في أوضاع البحر المتوسط ص ٨٩ ـ ٩٠، مجلة الجمعية المصرية.

٢٠ ـ البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٤٠.

٢١ ـ أنظر: المقريزي / الخطط ج ٣ ص ٥.

ابن خلدون / المقدمة ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

٢٢ ـ حسين مؤنس / أثر ظهور الإسلام في أوضاع البحر المتوسط، ص ٩٢، مجلة الجمعية المصرية.

٢٣ ـ سالم والعبادي / تاريخ البحرية الإسلامية ص ١٦١.

٢٤ ـ سالم والعبادي / تاريخ البحرية الإسلامية ص ١٨٣.

٢٥ ـ العدوى / الأساطيل العربية ص ١٤٣.

٢٦ ـ البلاذري / فتوح البلدان ج ١ ص ١٤٠.

المقريزي / خطط المقريزي ج ٣ ص ٦.

٢٧ ـ المقريزي / خطط المقريزي ج ٣ ص ٣.

٢٨ ـ المصدر نفسه ج ٣ ص ١٠، ١٥.

٢٩ ـ ابن خلدون / المقدمة ص ١٩٠.

٣٠ ـ كان المسلمون فتحوا جزيرة قبرص عام ٢٨هـ / ٦٤٩م أيام معاوية وظل وضعها مشتركاً بين المسلمين والبيزنطيين حتى تمكن نقفور فوكاس ما بين ٣٥٢هـ / ٩٦٣م و ٣٥٩هـ / ٩٦٩م من الاستيلاء عليها تماماً وظلت خارج نفوذ المسلمين حتى عام ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م حيث فتحها السلطان الملك الإشراف برسباي، وفتح المسلمون جزيرة قوصرة قبالة تونس عام ١٣٠هـ / ٧٤٧م ولكنهم خسروها عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م لصالح النورمان، وفتح المسلمون جزيرة صقلية عام ٢١٢هـ / ٨٢٧م وخسروها عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م لصالح البيزنطيين، وفتح المسلمون جزيرة مالطة عام ٢٠٩هـ / ١٠٩٠م.

أنظر: سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

٣١ ـ أنظر: ابن خلدون / المقدمة ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

٣٢ ـ أنظر: العدوى / الأساطيل العربية ص ١٥٢.

سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

٣٣ ـ أنظر: سالم والعبادي / تاريخ البحرية الإسلامية ص ٦٠.

٣٤ ـ المصدر نفسه، ص ٥٧.

٣٥ ـ الحسن بن عبد الله / آثار الأول في ترتيب الدول ص ١٩٦ ـ ١٩٨،
الجاحظ / البيان والتبيين ص ٣٦٤،
المقريزي / الخطط ج ٣ ص ١٠،
العدوى / الأساطيل العربية ص ١٥٣ ـ ١٥٥،
سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٢٨ ـ ٣٧٣.

٣٦ ـ انظر: الحسن بن عبد الله / آثار الأول في ترتيب الدول ص ١٩٥ ـ ١٩٨،
زيدان / تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٢٠ ـ ٢١٢،
العدوى / الأساطيل العربية ص ١٦٢ ـ ١٦٦،
سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ٢١٣، ٢٣٢ ـ ٢٣٥.

٣٧ ـ الحسن بن عبد الله / آثار الأول في ترتيب الدول ص ١٩٥،
العدوى / الأساطيل العربية ص ١٥٨ ـ ١٦١.

٣٨ ـ ابو جعفر الطبري / تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

٣٩ ـ المقريزي / الخطط ج ٣ ص ٦ ـ ١٩.
سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ٢٩٩ ـ ٣٠٥.

٤٠ ـ كانت الجراية توفر من الاهراء السلطانية، وتعني كلمة الاهراء المخازن التي كانت تجمع فيها الغلال، وكان بعض هذا الغلال يجمع برسم الأسطول.
انظر: المقريزي / الخطط ج ٣ ص ١٠.
سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤.

٤١ ـ المقريزي / الخطط ج ٣ ص ١٠ ـ ١١.

٤٢ ـ المصدر نفسه / ج ٣ ص ١٢.

٤٣ ـ سعاد ماهر / البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٠٥.